تحت الرعاية السامية لمعالي وزير التعليم العالي والبحث العلمي

SOUS LE HAUT PATRONAGE DE MONSIEUR, LE MINISTRE DE L' ENSEIGNEMENT SUPERIEUR ET DE LA RECHERCHE SCIENTIFIQUE

الجـامعة الإفريقية العقيد أحمد دراية - أدرار

L'UNIVERSITE COLONEl AHMED DRAYA-ADRAR

تنظـــــــم

ORGANISE

الملتقى الدولي الحادي عشر

Onziéme Colloque International

التصوف في الإسلام والتحديات المعاصرة

Le Soufisme en Islam et Les défis contemporains

أيام: ٩-١٠-١١ نوفمبر ٢٠٠٨

المحور الخامس:

التصوف والقضايا المعاصرة

التصوف والقضايا المعاصرة

الشريف عبد الحليم العزمى الحسينى
رئيس تحرير مجلة الإسلام وطن

الحمد لله رب العالمين.. اختار للحق أهلاً، اتخذوه من الدنيا بدلاً، سَلْمٌ ما سالمَ الناس، وحربٌ ما حاربَ الناس، بهم قام الكتابُ وبه قاموا، وبهم عُلِمَ الكتاب وبه عُلِموا، لا يرجون مرجواً فوق ما يرجون، ولا يخافون مخوِّفاً فوق ما يخافون.

والصلاة والسلام على حبيب الله ومصطفاه، شمسِ الحق المشرقة بنور هداه، شفيعِ المذنبين يوم لا ينفع مالٌ ولا بنونَ إلا من أتى الله بقلب سليم، سيدنا ومولانا محمد.

اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه وآله الطيبين الطاهرين، وارضى اللهم عن أصحابه الهادين المهديين، صلاةً تشرحُ بها صدورَنا، وتيسرُ بها أمورَنا، وتوفقنا لما تحب وترضى.. أما بعد:

فى البداية أود الإشارة إلى بعض النقاط:

أولاً: التصوف هو الخلق، لذلك فهو فى وجه من وجوهه المشرقة ثورة على كل القيم الهابطة السلبية فى حياة الأفراد والشعوب، ليترقى بها إلى عقد صلات روحية عليا برب العالمين.

ثانياً: التصوف الإسلامى جسّد الصبر كخلق من أخلاق الإسلام والمسلمين لتعرضه لكثير من الحملات الضارية المتوالية، ويضطر المتصوفة إلى التخلق بالصبر، والوقوف فى خندقه لصد هجمات المتطاولين عليه، وعلى شيوخه الأفاضل.

ثالثاً: أمد التصوف الإسلامى مسيرة الدعوة الإسلامية بكثير من المجاهدين والثوار، الذين غيروا وجه التاريخ وأدخلوا الناس فى دين الله أفواجاً مثل: العز بن عبد السلام، والسيد أحمد البدوى، والسيد أبو الحسن الشاذلى، والأمير عبد القادر الجزائرى، والشيخ عمر المختار، والأمير عبد الكريم الخطابى، والسلطان محمد الفاتح وغيرهم.

رابعاً: التصوف كعلم موجود منذ صدر الإسلام، أما الطرق الصوفية فقد أسسها أهل البيت الكرام لربط المحبين بأئمتهم، فإذا تحدثنا عن الدور الصوفى فضمناً هو دور أهل البيت فى نشر التسامح فى المجتمعات.

هذه خواطر شخصية أتقدم بها بين يدى ورقتى للملتقى الدولى الحادى عشر الذى تنظمه الجامعة الإفريقية العقيد أحمد دراية بأدرار أيام 11-12-13 ذو القعدة 1429هـ الموافق 9-10-11 نوفمبر 2008م، والتى تدور حول المحور الخامس (التصوف الإسلامى والقضايا المعاصرة).. وبداية أقول:

الصوفية وواجب الوقت

فى العقدين الأخيرين تغير وجه العالم، وتغيَّرت خريطة الأرض، ووجد ما يسمى بالنظام العالمى الجديد، وهو نظام يكيل بمكيالين، وينظر بمنظارين، ويُغلب المصلحة على العدل، ويرجِّح المنفعة على الحق، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى، ويكفى ما يعانيه المسلمون فى بؤر الصراع المتعددة فى العالم، فى العراق، وأفغانستان، ولبنان، والسودان، وفى فلسطين وغيرها، ولهذا يبرز الجهاد كفريضة إسلامية للوقوف صفاً واحداً أمام هذا النظام الجائر.

وقد ابتلى المجتمع الإسلامى بما يسمى بالأصولية، وما هى بأصولية، لأنها لو عادت إلى أصول الدين، واستمدت من أصوله مرجعيتها، وأخذت منها مصداقيتها لوجهت سلاحها لخصوم الإسلام والمسلمين، إلا أنها للأسف الشديد أدارت ظهرها لأعدائنا ووجهت سهامها لصدورنا، فغيَّرت المنكر – كما تزعم – بمنكر أشد، فعاثت فى الأرض فساداً، وأضاعت الأمن فضاع معه الإيمان والتسامح، وكان إثمها أكبر من نفعها، لأنهم تركوا ساحة الحرب بين الإيمان والكفر، ونزلوا ساحة اصطنعوها هم وهى: الحرب بين السنة والبدعة، فحاربوا الصوفية والشيعة والأشاعرة والماتريدية وتركوا الضعفاء عراة أمام المبشرين والملحدين والصليبيين والصهاينة، فالله حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلى العظيم.

وهنا جاء دور التصوف الإسلامى الحق، استجابة للنداء الربانى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (آل عمران: 200)، وتحقيقاً لقوله ρ وآله: (لا تزال طائفة من أمتى قائمة على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله)، ومن ثم أدرك شيوخ الطرق الصوفية ومفكروها الخطر الذى يهدد الأمة الإسلامية فى وجودها ومعتقداتها ومقدراتها، وشعر أهل الشريعة والحقيقة بضرورة المرابطة والمجاهدة، والصبر والمصابرة، من أجل تعبئة قوى الأمة واستنهاض هممها، وتحريضها على تجاوز حالة الضعف والاستكانة، لمواجهة الخطر الداهم المتمثل فى وحشية النظام العالمى الجديد، الذى يتبنى الفوضى الخلاَّقة، وعدم التسامح للسيطرة على المجتمعات، لأن القائمين على هذا النظام يعلمون أن العمل الجماعى هو القاعدة لاستعادة دور الأمة الإسلامية الحضارى، باعتبارها أمة وسطاً شاهدة على الناس، تؤمن بأن تزكية النفس ومجاهدتها لبناء الشخصية الإسلامية الصالحة هى الطريق إلى الانتصار على الضعف، والكفيلة بتحريك طاقات الأمة فى مواجهة أعدائها.

لذلك تأتى أهمية المنهج الصوفى فى نشر التسامح فى المجتمعات لأنه فضلاً عن أنه منهج لا يعرف الانتقام، فهو منهج لا يعرف الإقصاء ورفض الآخر، أو المختلف معه فى الفكر، وهو المنهج السائد فى عصرنا الحاضر من صراعات وتسابق على التسلح وتطويع العلم والمبتكرات للقضاء على الآخر ودحره وكسر إرادته وإذابته بمنطق عجيب اختصره الرئيس الأمريكى جورج بوش حين قال: (من ليس معنا فهو ضدنا).

الأمن والإيمان :

إن أمن واستقرار المجتمعات عن طريق نشر التسامح هو موضوع غاية فى الأهمية، حيث لابد من الاهتمام بالحراك الاجتماعى اهتماماً عملياً ونظرياً، وأن ذلك هو المحضن الأساس لكل حراك فكرى أو سياسى أو اقتصادى، ولذلك كانت له الأولوية، بل إنه يعد ضابط الإيقاع لكل أنواع تنمية المجتمع.

إنه ينبغى علينا أن نضع قاعدة مهمة، وأن نفهمها بعمق، وهى تمثل أهم قواعد التعايش فى المجتمع المعاصر، وهى أن الأمن قبل الإيمان، وقد يفهم بعض المتدينين هذه القاعدة على غير وجهها، فيفهم منها مثلاً أننا نؤخر ما واجبه التقديم، حيث إن الإيمان هو سبب الأمن، فكيف نقدم الأمن عليه شرعاً، وهو مؤخر عنه طبعاً باعتباره أنه نتيجة عن الإيمان، والنتيجة تلى السبب، ولا تتقدم عليه حتى قال محمد إقبال فى حكمته:

(إذا الإيمان ضاع فلا أمان ولا دنيا لمن لم يحى دينا).

وهو كلام صحيح فى نفسه، ويترسخ من قوله تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ) (الأنعام: 82)، لكن المقصود من القاعدة أنه لا يجوز للإنسان تحت دعوى تحصيل الإيمان أو مقتضيات ذلك الإيمان أن يخل بالأمن، لأنه إذا أخل بالأمن كان ذلك أولاً: مخالف للإيمان، وثانياً: مضيع للمؤمنين، وثالثاً: يضيع الحالة التى يمكن فيها للمؤمن أن يمارس إيمانه، ولذلك نرى رسول الله ρ فى مكة يرفض الدعوة إلى الصدام، وإلى إخلال الأمن فيها رفضاً تاماً، بل ويغضب عندما يوضع الإخلال بالأمن كخيار فى مقابلة تطبيق الإيمان، ومن ذلك ما رواه ابن سعد فى طبقاته عن العباس بن عبادة بن نظلة أنه قال: (يا رسول الله، والذى بعثك بالحق لئن أحببت لنميلن على أهل مِنى بأسيافنا وما أحد عليه سيف تلك الليلة غيره، فقال رسول الله ρ: إنا لم نؤمر بذلك).

ولقد كان رسول الله ρ يدخل الكعبة المشرفة منصوبة فيها الأصنام، فلم يهدمها ولم يأمر بهدمها، مع أنها محض شرك، بل إنه فى عمرة القضاء فى السنة السابعة بعد الهجرة وقبل فتح مكة، دخل المسجد الحرام وطاف وصلى وسعى والمسجد به ثلاثمائة وستون صنماً، وكان بإمكانه أن يأمر بهدمها تحقيقاً للإيمان على حساب الأمن– لأن قريشاً كانت ستقاتله– لكنه لم يفعل ذلك تأكيداً لقاعدة تحقيق الإيمان بشرط وجود الأمن.

وهكذا قدم سيدنا هارون الأمن على مقتضيات الإيمان، وقال لسيدنا موسى فى القصة المشهورة: (قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلاَ بِرَأْسِى إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى) (طه: 94)، وهؤلاء هم الذين أمرنا الله أن نتبعهم، فقال: (أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ) (الأنعام: 90).

وهذا أمر يجب أن نتفق عليه، وهو يمثل هاجساً لدى الشباب المتطرف الذى يريد أن يقدم ما تصوره من الإيمان على التسامح الذى يحقق الأمن والاستقرار، ولقد امتد هذا الهاجس حتى إلى بعض كتابنا

فتراهم يتساءلون إذا ما سمعوا أن شيئاً ما حرام، فهل هذا يجب معه أن نغير ذلك المنكر بأيدينا، أليس السكوت على ذلك من باب النفاق؟ وما أتى هذا السؤال إلا للجهل بتلك القاعدة الأساس، والتى يجب أن نفهم معناها على وجهه، وأن نؤكد عليها، وننشر معناها.

تغيير المنكر بين الأمن والإيمان :

قال الرسول الأعظم ρ وآله: (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) (رواه الإمام أحمد فى مسنده، ومسلم فى صحيحه).

هذا الحديث اختلف العمل به بسبب مفهوم الإيمان أولاً ثم الأمن، أم الأمن أولاً ثم الإيمان، المفهوم الأول تبناه التكفيريون والإرهابيون، والمفهوم الثانى تبناه الصوفية.

بسبب تطبيق المفهوم الأول ضاع الأمن، فظهر الإرهاب والتطرف، وأصبح سفك الدماء والتكفير والتشريك شيئاً هيناً، بل إنهم وجدوا حلاوة لتكفير وتشريك المسلم بقصد استحلال دمه وماله وعرضه، فقاموا بشئ لم يعرف طوال تاريخ الأمة الإسلامية، وهو أنهم افترضوا نوايا من عندهم، ثم فرضوها على المسلمين، ثم حاسبوهم على هذه النوايا، وأصدروا حكمهم بتكفير المسلمين وقتلهم وسرقة أموالهم وهتك أعراضهم.

أما السادة الصوفية– وهم الذين غيَّروا المنكر بمفهوم تقديم الأمن والتسامح على مقتضيات الإيمان– فهم الذين حافظوا على استقرار المجتمعات، ولم يخرج من عباءتهم إرهابى ولا متطرف ولا متآمر على نظام حكم، ولا قاتل أو مُكفِّر لمسلم، أو مستحل لعرض ومال ودم من ينطق بـ (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، لأنهم فهموا من قول رسول الله ρ: (وذلك أضعف الإيمان) أن (ذلك) اسم إشارة للأبعد، وهو تغيير المنكر باليد، فبدءوا بأقوى الإيمان وهو (علم القلوب) المعروف اصطلاحاً بعلم التصوف. فعندما يجدون منكراً ينفذ باليد: كالسرقة والقتل وأخذ الرشوة، فإنهم يغيرون هذا المنكر بأن يكونوا قدوة أمام الناس لا يسرقون ولا يقتلون ولا يأخذون الرشوة، فهم يغيرون المنكر عند الناس بفعل المعروف أمامهم، وعندما يجدون منكراً ينفذ باللسان: كالكذب وشهادة الزور والغيبة والنميمة، فإنهم يظهرون الصدق وشهادة الحق والامتناع عن ممارسة الغيبة والنميمة، وعندما يجدون منكراً من أمراض القلوب: كالرياء، والعجب، والكبر، فإنهم يتجملون بعكس هذه الأمراض كالإخلاص والتواضع وعدم رؤية الأعمال الصالحة.. وهكذا كان المنهج الصوفى أمناً وسلماً فى المجتمعات مع حرصهم على تربية وتثقيف وتعليم المجتمعات حقيقة الدين وتعاليمه الصحيحة بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن.

المنهج الصوفى من الكتاب والسنة :

ومنهج السادة الصوفية مستمد من كتاب الله– تعالى–، وسنة رسوله – ρ وآله– والدليل على ذلك:

1– امتن الله على قريش بنعمتى الأمن والإطعام من جوع، وطالبهم بسببهما أن يعبدوه، فقال تعالى: (لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ* إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ* فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا البَيْتِ* الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ) (قريش: 1–4)، وفى موضع آخر يمن المولى عليهم بنعمة الأمن والاطمئنان، حيث يقول سبحانه: (أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ) (العنكبوت: 67).

2– لم يطلب الله تعالى العبادة من عباده إلا إذا توفر الأمن، قال تعالى: (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً) (آل عمران: 97)، قال العلماء: الاستطاعة تنحصر فى: الزاد، والراحلة، وأمن الطريق.

3– بيَّن القرآن عنصر الأمن بارزاً كعامل مساعد لقيام الحضارة، فقال عن عاد: (وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ) (الحجر: 82).

4– قرر القرآن الكريم أن فقد الأمن نوع من البلاء، فقال تعالى: (وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) (البقرة: 155).

5– أكد القرآن أن الانحراف عن المنهج الإلهى والهدى الربانى من أعظم أسباب فقدان الأمن، وأكبر عوامل الانهيار الحضارى قال تعالى: (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) (البقرة: 112).

6– وتأتى شرعية التسامح لتحقيق الأمن فى الإسلام من قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ) (البقرة: 208).

7– أكد رسول الله ρ وآله أن نعمة الأمن– التى من بين أسبابها التسامح– تساوى ثلث نعم الدنيا، فقال ρ وآله: (من أصبح آمناً فى سربه، معافاً فى بدنه، عنده قوت يومه فقد حيزت له الدنيا بحذافيرها) (تهذيب الآثار للطبرى 95/4، وتخريج أحاديث الإحياء للعراقى148/7).

كيف نشر الصوفية التسامح فى المجتمعات ؟

إن التربية الصحيحة للفرد والمجتمع تكفل ترسيخ مبدأ الإخاء البشرى، فالفرد الذى يتحلى بالفضائل ويتمسك بالأخلاق الحسنة والصفات الحميدة، يكون منبعاً لكل خير، ومصدراً لكل بر، كما أن التربية الصحيحة للفرد والمجتمع تكفل الابتعاد عن الظلم والبغى والتعصب الممقوت– وغيرها من أسباب النزاعات ودوافع الحرب، ولذلك سلك الصوفية مسالك متعددة لنشر التسامح فى المجتمعات.. منها:

(1) تربية الفرد المسلم :

أساليب التصوف الإسلامى تقوم على تربية المريدين على التوبة، والمجاهدة، والزهد، والمحبة، والخشية، والورع، وقطع الهوى، وكل ما يدخل تحت المقامات، فالمقامات أساليب تربوية.

– تربية تجعل الإنسان إيجابياً، يعيش فى حركة بناءة.

– تربية تؤهل الإنسان للعطاء، وتنمى فيه القدرة على مواجهة الصعاب.

– تربية تعد الإنسان إعداداً ناضجاً لممارسة الحياة بالطريقة التى يرسمها ويخطط أبعادها الإسلام.

– تربية تجعل الشخصية الإسلامية شخصية متزنة، ولا يطغى على موقفها الانفعال، ولا يسيطر عليها التفكير المادى، ولا الانحراف الفكرى المتأتى من سيولة العقل.

– تربية تبنى الإنسان على أساس وحدة فكرية، وسلوكية وعاطفية متماسكة على أساس من التناسق.

– تربية تجعل الإنسان يشعر دوماً أنه مسؤول عن الإصلاح وفعل الخير.

إن هذه الأساليب تؤكد لنا أن التصوف هو جزء جوهرى من الدين الإسلامى، إذ إن الدين يكون ناقصاً بدونه، بل يكون ناقصاً من جهته السامية (أعنى جهة المركز الأساس) لذلك كانت افتراضات رخيصة تلك التى تذهب بالصوفية إلى أصل أجنبى (يونانى)، أو (هندى) أو (فارسى).. وهى معارضة بالمصطلحات الصوفية نفسها، تلك المصطلحات التى ترتبط باللغة العربية ارتباطاً وثيقاً.

وإذا كان هناك من تشابه بين الصوفية وما يماثلها من البيئات الأخرى، فتفسير هذا طبيعى لا يحتاج إلى افتراض الاستعارة، ذلك أنه ما دامت الحقيقة واحدة فإن كل العقائد السنية تتحد فى جوهرها، وإن اختلفت فيما تلبسه من صور.

(2) علاج التطرف فى المجتمع :

التصوف الإسلامى يخاطب وجدان البشر ويهتم بتهذيب سلوكهم، وترقيق مشاعرهم، وترقية أرواحهم. ولاشك فى أن النزعة الوجدانية قوة أصيلة، وركيزة هامة فى بناء شخصية الإنسان، ولا تقبل الشخصية الإنسانية قمع هذه النزعة، وإهدارها باسم العقل، أو باسم غيره من قوى الشخصية، فإذا حدثت محاولة لذلك وقعت الشخصية فى اضطراب عظيم، ليس ذلك كنتيجة لاختفاء قوة من هذه القوى الضرورية فحسب، ولكن لأن القوة المتحيف عليها لا تنتهى، وإنما تتحفز للصراع، وتتواثب للغلبة، وبذا تتحلل هذه القوى وتضيع هباء، وتضل من هنا شخصية الإنسان، ومن هنا يأتى التصوف ليحافظ على قوى النفس جميعها. فهو يحقق التوازن النفسى، والاعتدال، فيقى بذلك الإنسان من القلق والخوف والاهتزاز.

خرج إبراهيم بن أدهم الصوفى يوماً فقابله رجل وضربه بحجر فى رأسه فشجه، فلم يلتفت إليه، فقابله رجل آخر وأعطاه قطفاً من عنب، ثم قابله رجل ثالث وقال له: من الذى أعطاك العنب؟ قال: الذى ضربنى!!. لأنه لا يرى إلا الله ينفع ويضر، وليس ذلك سلبية أو ضعفاً كما يتوهم البعض وإنما هى القوة فى أسمى معانيها، قال تعالى: (فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ) (الشورى: 40)، وقال ρ وآله: (ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب).

إن المجتمع المسلم فى أمسِّ الحاجة إلى ما يمكن تسميته بـ (النموذج الصوفى)، لأن كل شىء من

حولنا يهتز ويخور، والقيم الأخلاقية آخذة فى الاضمحلال، والشباب حينما يفقد القدوة يندفع تحت تأثير الإحباط نحو التسيب والجريمة أو التشدد والتعصب الدينى، وهنا يأتى (النموذج الصوفى)، ويجب أن نفسح له مجالاً فى حياتنا، ليعبر على الجانب الآخر للقضية، يأتى ليبدد بمشكاة الأخلاق القويمة، والتأملات الروحية الرائعة ظلام هذا العصر، فلنفسح له ولأمثاله مكاناً فى حياتنا الثقافية والروحية، حتى يكون بمثابة رد فعل مضاد للعوامل التى أدت إلى انحراف الشباب، وليكون لنا جميعاً وسيلة لتربية الضمائر، وإيقاظ الهمم، وبسط الأمن والاستقرار، ونشر ثقافة التسامح والحب، وبادرة أمل وسط هذه الأخلاق الملبدة بالغيوم.

(3) توحيد كلمة الأمة :

تميَّز الصوفية بميزة لا توجد فيمن سواهم وهى وحدة الصف، والتى تعد من أكبر عوامل الأمن والاستقرار فى المجتمعات، ففى الوقت الذى تتحزَّب فيه الحركات العاملة فى الجو الإسلامى وتنقسم على أنفسها، نجد الصوفية متحدين فيما بينهم رغم تعدد الطرق، لأن المنهج الصوفى واحد، وجميع الطرق فى مصر لهم شيخ واحد هو سماحة السيد حسن الشناوى شيخ مشايخ الطرق الصوفية، وإن كلاً اختار سبيلاً يراه أسهل فى الوصول إلى الغاية، أو يراه أليق بحاله مع احترامه للجميع، كاختلاف المدرسين فى مدرسة واحدة فى تدريس مقرر واحد، فلكل طريقته فى التعليم، والكتاب واحد، ولذلك اتفق الصوفية على مقولة: (اعرف شيخك، وَحِبّ الكل).

مدارس الصوفية لا خلاف بينها فى كل زمان ومكان :

الصوفية لا خلاف بينهم فى كل زمان ومكان، وبدايتهم تزكية النفوس من أدرانها، وتطهير الأجسام من نجاستها المعنوية، والاتصال بالمرشد الكامل الذى يتلقون عنه العقيدة الحقة، ويتشبهون به فى الأعمال السنية، والأخلاق المرضية، والمعاملات المقربة إلى الله تعالى، لأن المرشد وارث رسول الله ρ وهو صلوات الله وسلامه عليه لم يورِّث درهماً ولا ديناراً، ولا أطياناً وعقاراً، ولكنه ρ ورَّث نوراً وهدى، وحكمة وبياناً قال الله تعالى: (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ) (البقرة:151). فهذه الخيرات هى ميراث سيدنا رسول الله ρ التى ورَّثها الله بفضله من شاء من عباده.

والسادة الصوفية يطبقون مفهوم الوحدة الإسلامية، وتوحيد الكلمة بصورة يتميزون بها عن غيرهم من الطرق التعبدية الأخرى، بالآتى:

أ) ديمومة الطريق من صدر الشريعة ونبع الحقيقة وهو الرسول ρ بواسطة الشيوخ عارفاً عن عارف، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ب) تبادل المعارف الذوقية من المرشدين إلى المريدين عن طريق الصحبة الصالحة والخالصة لوجه الله التى تنطلق من المجالسة، وما فيها من مدارسة ومؤانسة.

ج) التمسك الشديد بمبدأ (يد الله مع الجماعة) بالالتزام التام بالاجتماع فى الله مع شيخ التربية

والمريدين أو المرادين فى الطريقة على الذكر والمذاكرة والحضرة، التى يتحقق بها العلم النافع للقلب الخاشع المقبل على الله، وهو ما يترجم عن الروح الجماعية والأبعاد الاجتماعية للتربية الصوفية.

د) اعتبار رجال السند الصوفى فى طريقة الوصول يتوزعون على جميع أقطار العالم الإسلامى، لا فرق فى ذلك بين عربى وعجمى.

هـ) البعد العلمى للتصوف الإسلامى سلوكاً وتحقيقاً يفسح المجال للمريدين، بأى جزء من بلاد الإسلام، بالانتساب إلى أى شيخ مُرَبٍّ أكرمه الله بمعرفته، وانشراح الصدر للانتفاع به، وبذلك لا تكون القطرية والإقليمية عائقاً فى وجه طلاب العلم بالله، وهو ما يكرس شيوع الولاية فى شتى أقطار المسلمين ويضمن الاستمرارية للتصوف، ويستمتع به الراغبون فى تحصيله أينما كانوا، خاصة وأن شيخ التربية يحتاج إلى صحبته كل أحد من أى طبقة كان، وأحوج الناس إلى صحبته هو العالم، وذلك لأن الشيخ لا يقصد أن يتعلم منه العلوم والعمل بها فقط بل المقصود الأهم، والوجه الأغر من صحبته هو مداواة القلوب من أمراضها الباطنية كالكبر، والإعجاب بالنفس وما ألصقها بالعلماء، فالطريقة الصوفية على هذه الاعتبارات هى مدرسة دينية مجالها الحيوى هو الأمة الإسلامية جمعاء.

فالطرق الصوفية- كما وصفها سماحة السيد عز الدين ماضى أبو العزائم τ-: (أبواب على طريق واحد).

(4) نشر الإسلام والتصدى للتنصير :

إن نشر الإسلام فى أرض جديدة مهمة أكثر صعوبة. وقد حفظ التاريخ للصوفية ما اضطلعت به من الدور الهام فى الدعوة إلى الإسلام، وسبقوا التنصير المسيحى وضيقوا عليه الخناق فى تسلله إلى أفريقيا وأندونيسيا وجزر المحيط الهندى والصين والهند، ولم يثبت أنهم دخلوا بلداً رافعين سلاحاً، فيكون ذلك مدعاة لضياع أمنه واستقراره، ولكنهم نشروا الإسلام بالأخلاق الفاضلة والمعاملة الحسنة، وهذه خصوصية انفرد بها السادة الصوفية.

ومن لم يُسْلِمْ بُهِرَ بمنهج السادة الصوفية خاصة فى ظروف الحرب والقتال، ففاتح القسطنطينية محمد الفاتح الصوفى المعروف فور فتحها يعلن مسؤوليته عن الكنيسة ورعايته لها، ليحمى أصحاب العقائد الأخرى من الخوف أو الأذى، وقد كان من حقه أن يعاملهم معاملة الأسرى لكنه عاملهم بالتسامح والإحسان والفضل لا بمنطق العدل، وهو منطق صوفى يعيش حالة من الرضا والسمو الروحى.

ويكفى الصوفية عموماً والفاتح خصوصاً ما بشر به النبى ρ وآله فى الحديث المشهور بمسند الإمام أحمد: (لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش).

وصلاح الدين الأيوبى الصوفى الذى آمن بأن الجهاد صوفية والصوفية جهاد، وقد انتشرت الصوفية فى عصره حتى صارت مظهراً دينياً خالصاً. يذكر ابن الوردى فى تاريخه مشاركة شيوخ الصوفية فى فتح القدس حيث يقول: وشهد فتحه كثيراً من أرباب الخرق والزهد (يقصد الصوفية)، أما صلاح الدين

الأيوبى نفسه فنجده وقد تعامل مع أعدائه المنهزمين بمنهج التسامح الصوفى، فلم يقتل قائد الصليبيين المهزوم الذى سقط جريحاً، بل إنه عندما علم بمرض قائد الصليبيين (ريتشارد قلب الأسد) أرسل طبيبه إليه ليعالجه، ولو امتنع فلا جناح عليه، ولو قتل القائد المهزوم لما لامه أحد، وأطلق سراح الآلاف من الأسرى بدون فدية، وهؤلاء الأسرى هم الذين كانوا لا يعرفون الرحمة فى معاملة المسلمين، لكنه التسامح الصوفى فى صورته الحقيقية، مما دفع بعض النصارى فى أوروبا أن يدَّعوا أن أمَّ صلاح الدين نصرانية، ذلك لأنهم خجلوا من نبله وموقفه الصوفى الذى لا يتمنون أن يكون فى الإسلام أو من الإسلام، خوفاً من أن يتأثر أبناؤهم من سلوكه الصوفى النبيل.. فماذا لو انتشر هذا التسامح الصوفى فى سائر المجتمعات؟

أما عن جهاد الصوفية فى نشر الإسلام، فيكفينا ما ورد على ألسنة خصوم الإسلام أنفسهم، يقول بعض المنصّرين: (ما ذهبنا إلى أقاصى المناطق البعيدة عن الحضارة والمدنية فى أفريقيا وآسيا إلا وجدنا الصوفى يسبقنا إليها وينتصر علينا).

ويقول المستشرق ت. و. أرنولد فى كتابه (تاريخ انتشار الإسلام): (إن أهل التصوف حققوا نتائج عظيمة فى زمن قصير، وإن انتشار الإسلام فى العديد من الأماكن من العالم كان بفضل هؤلاء المتصوفة).

يقول المستشرق أ.ب بنيجسين: (إن الطرق الصوفية حافظت بشكل كبير على الإسلام فى وسط آسيا، فقد قام أتباع تلك الطرق بالتصدى لهجمات الكفار هناك، وحملوا على عاتقهم مهمة التبليغ والدعوة الإسلامية).

وقد استطاع الصوفية دخول هذه المناطق عبر قناتين: التجارة والتعليم، ولا شك أن التجارة باب واسع للاندماج والمعاينة والثقة، وهى كذلك فرصة لتبادل الأفكار والتعرف على العقائد، ولما كان الصوفية يتميزون بالأخلاق الفاضلة التى بهرت هؤلاء الأقوام فدخلوا فى دين الله أفواجاً، مع تبادل المواد التجارية اللازمة لحياة الناس.

أما وسائل التعليم عند الصوفية فقد اتسمت بالبساطة والألفة والأسوة مما يجعلها قريبة من الأفهام على اختلاف مستوياتها، حبيبة إلى القلوب التى تستشعر فيها السكينة والأمان.

وفى البلاد التى أثبت التاريخ أن الصوفية ذهبوا إليها متطوعين – ولم يكن الإسلام قد وصل إليها بعد – امتزجوا بأهلها وعايشوهم، واستطاعوا – من خلال معايشتهم وتسامحهم وأسلوبهم المقنع – نشر الإسلام وتبليغه، وبذلك يكونون قد أسسوا قاعدة مناسبة لتقبل الفتح الإسلامى بشكل رسمى فى تلك البلاد.

وكان شعار الصوفية هو فتح القلوب للإسلام بشكل ميسر يبهج القلوب ولا ينفرها، وقد استطاعوا ذلك بالفعل.

– لقد شارك الصوفية الناس أفراحهم وأتراحهم ومشاكلهم فلم تنفصل العملية التعليمية عن واقع حياة الناس.

– يقول أبو الحسن الندوى: (لقد كانت هناك – فى الهند – بجهود هؤلاء المتصوفة، أشجاراً كثيرةً

وارفة الظلال فى مئات من بلاد الهند، استراحت فى ظلها القوافل التائهة والمسافرون المتعبون ورجعوا بنشاط وحياة جديدة).

– ويقول الشاعر محمد إقبال: (إننى أقول دائماً: لولا وجودهم وجهادهم – يعنى الصوفية – لقضت الهند وحضارتها وفلسفتها على الإسلام).

(5) العطاءات الاجتماعية للصوفية :

يرتكز العطاء الاجتماعى للسادة الصوفية على ثلاث دعائم أساسية:

أ– اجتهاد شيوخ التربية فى إرشاد مريديهم وتعريفهم بالله.

ب– إقامة الزوايا الصوفية وجعلها قلاعاً ومنارات للرعاية والهداية والدعوة إلى الله.

ج– تنظيم الاجتماعات التعبدية للخواص والعوام بصفة دورية، واعتبارها مجالس ذكر ومذاكرة، وترقية فى الإيمان، والتحصين من وساوس الشيطان.

وليس من السهل الإلمام بشتى عطاءات السادة الصوفية التى رسخت التسامح فى الحياة اليومية لمجتمعاتهم ومواطنيهم، ولكن سيتم هنا الاقتصار على نماذج منها فقط:

1) السعى فى مصالح الناس.
2) توظيف الشهرة فى تفريج كرب المسلمين والتخفيف من آلامهم.
3) حث المسلمين على مقاطعة الآفات الاجتماعية.
4) تحمل أعباء الصحبة فى الله.
5) التسامح مع من ناصبهم العداء، أو مسهم بالإيذاء، أو أنكر أحوالهم، أو سفَّه عوائدهم.
6) إيثار الغير على النفس فى أداء الحقوق والخدمات.
7) مقابلة الإساءة بالإحسان إنصافاً للنفس وإنصافاً للناس، يقول الإمام أبو العزائم τ:

من سبَّنى أو ذمَّنى متعمداً أبرأته لله خالص ذمته
أنا لا أريد فضيحة يوم اللقا أنا لا أسئ محمداً فى أمته

8) السياحة فى الأرض للنفع والانتفاع.
9) التدرج المنهجى فى الصلاح والإصلاح.
10) تأليف القلوب على الإسلام بالإطعام والإكرام.
11) العناية الكبرى بالعمل وتجنب الكسل.

توصيات البحث

أولاً: لما كان المنهج الصوفى هو المنهج الوسط الذى يتبنى نشر ثقافة التسامح بين الغلاة والبغاة، أصبح عنصر الأمن والاستقرار فى المجتمعات، ومن ثم فنوصى القيادة السياسية أن تفسح المجال لهذا

المنهج فى الانطلاق إعلامياً وثقافياً وتعليمياً لعلاج التطرف والإرهاب فى المجتمعات.

ثانياً: تبنى أنشطة ثقافية واجتماعية لنشر التسامح إلى جانب النشاط الدينى فى سائر المجتمعات.

ثالثاً: جعل الموالد مؤتمرات شعبية لإجلاء حقيقة التصوف، والعمل على التنسيق بين شيوخ الطرق الصوفية بما يحقق تكاملاً فى برامجها، وتبادلاً للتجارب والخبرات بينها.. واستقراراً وتقدماً وأمناً للمجتمعات.

رابعاً: أن يؤدى الصوفية دورهم المعروف فى توحيد الأمة فى ظل التعددية المذهبية بين الشيعة والسنة.

خامساً: إنشاء هيئة عليا للتصوف العالمى للنهوض به، وتقديمه بالصورة اللائقة، والدفاع عنه ضد خصومه المتربصين به، وتبادل أخبار الصوفية الذين يبلغ عددهم حوالى ستمائة مليون صوفى فى جميع أنحاء العالم.

سادساً: نوصى باستمرار هذه الملتقيات، وتكثيف حضور السادة مشايخ الطرق، ونشر هذه المؤتمرات إعلامياً بكافة الطرق (صحافة- تليفزيون- إذاعة- انترنت- اسطوانات C.D).